اللّغة العَربيّة نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي

للأستاذ رشاد داغوث

(بيـــروت)

1 ـــ اختار السيد المسيح (عليه السلام) اللغة السريانية ، للجهر برسالته ، وهو العبراني مولدا ونشأة ولغة .

وفي تعليل ذلك يورد المؤرخون ، واصحاب اللاهوت ، ان السبب كان شيوع هذه اللغة بالذات ـ اللغة السريانية ـ في الهلال الخصيب ، مربع الحضارة السامية (1) من بقاع المشرق الواسعة . في حين كانت اللغة العبرانية تعيش في قوقعة مغلقة . ولما كان صاحب الديانة النصرانية يريد ان ينشر رسالته ، على أوسع مدى ـ ومن ثم في العالم باسره ـ فقد لجأ الى اللغة السريانية الواسعة الانتشار .

2 ـــ ومثل هذا يصح قوله في الاسلام ، واختياره اللغة العربية للتعبير عن ذاته . فكان القرءان عربيا ، وكان ان قراه الرسول عليه السلام بأجمل لهجات العرب وارقاها ، مقدمة لنشر الاسلام في العالم باسره .

وليس بخاف الآن ان جميع الشعوب السامية ، من بابليين واشوريين وكلدانيين وامورين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب واحباش ، كانوا في زمن ما ، قبل تباينهم ، يعيشون شعبا واحدا ، في مكان واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، هي اللغة السامية الام (2) .

وربما كانت هذه اللغة الام هي اللغة العربية بالذات ، لغة القرءان الكريم !

3 ـــ ونظرة عابرة ، على ما في القرءان الكريم من سعة في الالفاظ ، وبالتالي في الافكار ـ وما فيه من فنية في التعابير والاساليب ... تحمل الينا الاقتناع بأن اللغة العربية ، كانت ، اذ ذاك ، قد بلغت مستوى رفيعا من التكامل العضوي ، والفكري ، والجمالي ، معا .

ولا يتاتى ذلك الا للغة منتشرة ، تضم العديد من العناصر والشعوب والثقافات ... على مدى قرون متطاولة .

ونظرة مماثلة على ما وصل الينا من الشعر الجاهلي ، تحملنا على الاقتناع بأن التنزيل الكريم لم يختر عبثا هذه اللغة دون سواها ـ من اللغات او اللهجات السامية المعاصرة ـ او هي تدلنا ـ على الاقل ـ على ان ذلك الاختيار لم يكن اتفاقا بل مقصودا.

4 ـــ وقد **احصي عدد الالفاظ العربية** ، فبلغ على ما قاله حمزة الاصفهاني : (052 ر 350 ر 12) اثني عشر مليونا ، وثلاث مائة وخمسين الفا ، واثنتين وخمسين كلمة ، ما بين مشتق وجامد وعلم . اما المشتقات المستعملة وحدها ، فقد بلغت ، لذلك الحين ، سبعين الف كلمة (3) .

في حين احصي ما استعمله العهد القديم (التوراة) من الكلمات ، فبلغ (5642) خمسة آلاف وست مائة واثنتين واربعين كلمة ...

وأكثر قليلا من ذلك ما استعمله العهد الجديد (الانجيل) ، اذ بلغ (6.800) ستة آلاف وثمان مائة كلمة .

5 — كما أن امة العرب ، خلافا لما يزعمه المغرضون ، **هي الممثلة الحقيقية للعنصر السامي** ، بكامل خصائصه ومقوماته (4) .

وعليه ، فان هذا الغنى الفكري ، وتلك الخصائص العظيمة ، جعلت من الجزيرة العربية — على حد ما رواه استرابون المؤرخ الرومي — **بلدا يعيش في اكتفاء ذاتي.** الامر الذي اطمع فيها كل طاغية ... وليس في العالم اليوم بلد يعيش في الاكتفاء الذاتي — اذا استثنينا الولايات المتحدة الامريكية .

6 — نورد هذا للخلوص الى القول بان **اللغة العربية نبتت وتطورت بمقتضى ناموس النشوء والارتقاء الطبيعي** (5) ، في بيئة غنية ، منوعة الموارد المادية والبشرية . ثم تطورت بالاشتقاق ، والقلب ، والابدال والنحت ، والتعريب ، قبل الاسلام وبعده — على مدى عشرات القرون — من التاريخ المكتوب او المعروف ، ومن التاريخ غير المعروف ولا المكتوب .

وكان للعرب ، في ذلك الزمن السحيق ، دول : منها دولة « اليمن السعيدة » — كما كان لابناء عمومتهم المذكورين آنفا — دول ، في بلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين وفينيقيا او ارض كنعان .

ثم اصاب هؤلاء وهؤلاء انحطاط ، فطغى عليهم المستعمرون ، من الشرق ومن الغرب .

7 — واخيرا جاء الاسلام ... بعد تلك الفترة فاتخذ لغة العرب الرفيعة الفنية والغنية بالفكر ، سبيله الى التعبير ، والتشريع ، وانشاء الدولة — لانها لغة حية ، واسعة الانتشار في العالم السامي — وهو العالم المتمدن لذلك الحين . فنهض العرب ، من جديد ، ومعهم الساميون الآخرون الذين دخلوا في الدين الاسلامي — اذ استأنسوا بلهجتهم او تعلموها بيسر وسهولة ، لما بين هذه اللهجة العربية الجميلة الفصيحة — ولهجاتهم من صلات لم تنقطع ، وان وهنت ، على مر الزمن ، وبفعل المسافات .

8 — وهنا نتوقف قليلا لنتساءل عن مدى التكافل بين الاسلام واللغة العربية ؟ وبتعبير آخر ، هل كان يتأتى للاسلام ان ينتشر لولا هذه اللغة ؟ وهل كان للغة العربية ان تنتشر لولا الاسلام ؟

وقبل الجواب بالتحديد ، وان صعب ذلك — نلاحظ ان اللغة العربية حلت في القرن الثامن او التاسع الميلادي — في لبنان مثلا — محل اللغة السريانية، دون ان يحتل الاسلام فيه كامل مكان النصرانية . وقد سارع السكان اذ ذاك — وقد تعلموا التحدث باللغة العربية — الى كتابتها بحروف سريانية (6) .

كما ان الاسلام ، كدين سماوي ، انتشر في اقطار غير عربية ، وما برح اهلها المسلمون اليوم يجهلون اللغة العربية ، بصورة عامة .

وهنا نصل الى القول بان **الاسلام لم يكن عاملا — الا بقدر ضئيل — في انتشار هذه اللغة** . وان اللغة العربية ذاتها لم تكن سبيلا وحيدا لانتشار ذلك الدين الحنيف ، في العالم بأسره .

الاسلام كدولة ساعد على توسيع الرقعة التي يتكلم اهلها — او تكلموا لفترة طالت او قصرت — باللغة العربية . وذلك ابان ازدهار تلك الدولة . فلما سقطت العواصم الاسلامية ، في الشرق وفي الغرب ، ظلت هذه اللغة حية ، في مواطنها ، وحيث استقرت بصورة نهائية ، ثم تابعت انتشارها بمحض قدرتها وحيويتها وطاقاتها الذاتية .

تلك القدرة التي جعلت ، من اللغة العربية ، اداة للتعبير عن اروع الشعر ، وجعلت منها — حتى في العالم الغربي — **حاضنة للثقافة اليونانية** ، من فلسفة ارسطو الى طب جالينوس ورياضيات اوقليدس — كما جعلت منها حاضنة للادب الشرقي وخياله المبدع ، من امثال ابن المقفع الى قصص الف ليلة وليلة .

9 — وليس القول بان اللغة العربية تعيش بكفالة الاسلام ، الا من قبيل القول بان دين محمد (صلعم) قام بالسيف ... والعقلاء غير المغرضين يعلمون ان الدين الاسلامي لم يقم بالسيف ، وان لجأ الى القوة احيانا — ككل عقيدة — في سبيل دعم الحق او في سبيل الدفاع عن النفس .

10 — وفي واقع البيئة — التي نعيش فيها — دليل ساطع على ما ذهبنا اليه . وهو هذه النهضة اللغوية والادبية الحديثة التي اسهم فيها لبنان بشطره المسيحي — فكان علماؤه اللغويون وادباؤه وشعراؤه — هنا وفي مصر ، وفي سائر مهاجرهم — من معلمي اللغة العربية ، وباعثي امجادها ، ومحيي كلماتها في الكتاب وعلى اللسان — منذ منتصف القرن الثامن عشر للميلاد — في العالم العربي بأسره .

وذلك ، يوم كان المسلمون انفسهم يكادون ينسون لغة القرءان ، فيتكلمون هذه اللهجات العامية — على اختلافها بين قطر وقطر بل بين حي وحي من

مدينة ـ وهي جميعها حصيلة الانحطاط ، ومن رواسب الاستعمارين الفكري والسياسي المتماديين ـ منذ استولى الاعاجم على الحكم فى بغداد وسواها من عواصم الاسلام .

فى هذه الاثناء ـ خلال قرون الانحطاط والظلام ـ كانت مدارس الاديرة فى جبل لبنان ، والصوامع ، ورهبانها ، وكهنتها ، يعكفون ، كائمة المساجد ، وشيوخ الجامعات العربية الاسلامية ، فى شمال افريقيا ومصر والعراق على درس اللغة العربية وتدريسها ، الى جانب اللغات الاخرى التي تستدعي الحياة الكهنوتية دراستها ـ من سريانية ويونانية ولاتينية .

11 ـــ وهذا الواقع اثمر ثمرتين هما اولا : استمرار التلاقح بين لغتنا واللغات الاخرى ، وبالتالي اغناء هذه اللغة العربية بالمفردات والتعابير والاساليب .

وثانيا : تأثر الكتابة العربية ببعض الاصطلاحات السريانية ، وتأثر النطق ايضا . فحرف السين مثلا يرسمه المتعلمون ، فى المدارس الكهنوتية ، تعلوه شارة خاصة شبيهة بنقاط الشين (8) ـ والجيم ـ الحرف القمري فى اللغة العربية ، يلفظونه كانه حرف شمسي. والتاء المربوطة ، يلفظونها ، عند الوقف ، تاء مبسوطة ـ لا هاء ـ كما يقتضي ذلك علم التجويد ، وحسن اخراج الحروف .

وهناك تأثير ابرز ، فى اللغة العربية المحكية ، فى كثير من القرى اللبنانية ـ فى الشمال ـ وبعض المدن ـ تأثير جاء اليها من السريانية بالذات . ومثاله لفظ الالف ـ حرف المد المعروف ـ كانه (واو) . فطرابلس ، تلفظ هناك (طروبلس) ـ تأثرا باللهجة السريانية ذاتها التي تأثر بها كتبة الوحي . فخطوا (صلاة وحياة ...) هكذا (صلوة ، حيوة ...) في المصاحف الشريفة .

كما اننا نجد كثيرا من الكلمات الكنعانية (الفينيقية) ما برحت لليوم جزءا من اللغة المحكية ـ التي هي اساسا حصيلة تشويه أو تحريف للغة العربية وما سبقها ، وما دخل فيها من الالفاظ الاعجمية المحرفة ـ الامر الذي يشجع دعاة احلال العامية محل اللغة الصحيحة ، على المضي فى دعوتهم .

كما يشجع بعض الفئات على العمل لبعث الحروف الفينيقية (الكنعانية) .

12 ـــ ومن الفضول ان نذكر هنا بقيمة اللغة فى حياة كل امة ، على صعيد الثقافة العامة أو القدرة الانتاجية ، والمشاركة فى الحضارة الانسانية .

ولساننا العربي اغتنى،على مر القرون ـ بتلاقحه مع الالسنة الاخرى . وجاء التعريب ، بعد الاشتقاق ، ليزيد فى ثروة هذا التراث اللغوي الذي لا مثيل له ، لدى سائر الامم .

وما علينا اليوم الا ان نتابع السير على هذا الطريق المعبد ـ وبسرعة ـ ودون تحديد لنطاق الاشتقاق أو التعريب ـ .

13 ـــ والخلاصة ان **اللغة العربية**،فى انتشارها لم **تكن عالة على الاسلام** . ولا انتشر الاسلام بفضل اللغة العربية . انما كان ثمة بينهما تبادل فى التأثر والتأثير كما كان مثله بين المسيحية واللغة السريانية ـ اولا ـ ثم بينها وبين اللاتينية وما تفرع منها ، فيما بعد .

ولا شك ان كل تيسير وازدهار يتناولان اللغة العربية يؤولان الى انتشارها ، كما يسهلان ادراك الاسلام على حقيقته ـ فى أوساط المسلمين اولا ـ ثم فى الاوساط الاخرى .

الهوامش :

1) ـــ تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة للدكاترة فيليب حتي وجرجي وجبور .
2) ـــ المصدر نفسه ج 1 ص 10
3) ـــ الاشتقاق والتعريب ص 12 للمرحوم الشيخ عبد القادر دارغوث الشهير « بالمغربي » مطبعة الهلال بمصر 1908 .
4) ـــ تاريخ العرب ج 1 الطبعة الرابعة .
5) ـــ الاشتقاق والتعريب المذكور آنفا .
6) ـــ وقد نشأ عن هذا الخليط من اللفظ العربي والحرف السرياني ما يعرف للآن باللسان «الكرشوني» وبه كتبت اسفار كنسية كثيرة .
7) ـــ ذلك لان « السين » فى العربية هي (شين) في السريانية : سمس (السريانية) هي (شمس) العربية .